المحاضرة الرابعة:

من موضوعات الأدب الصوفي الجزائري:

ثانيا/ شعر الكرامات والأولياء في الأدب الصوفي الجزائري:

1- أدب الكرامات والأولياء: النشأة والدوافع:

ما كاد يبزغ القرن السابع الهجري حتى انحدر الوعي الصوفي إلى مرحلة الهرم واكتفى بالاتكاء على تعاليم السابقين، ولبس التصوف رداء (الطرق الصوفيةّ) التي انصرف جهد زعمائها وشيوخها إلى كشف حجاب الحس، الذي هواية المراتب الصوفية، لإدراك المعارف الغيبية بطريق الرياضة والمجاهدة.

ومنه أمكن رصد المراحل الثلاثة التالية في تاريخ التصوف الإسلامي:

المرحلة الأولى: هي فترة إثبات الهويّة، ودامت فترة القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

المرحلة الثانية: مرحلة النضج والإبداع الأدبي، والتفكير الفلسفي، وكذا محاولة التوفيق بين المتصوفة وخصومهم.

المرحلة الثالثة: عنيت بالتأريخ لهذه الحركة وضبط مفاهيمها وتدوين سير ومناقب أبرز رجالاتها، وفيها صنفت أهم المؤلفات الصوفية التي حفظت هذا التراث الخالد وتمتد من القرن السادس إلى التاسع الهجري.

وإذ كان البحث قد انشغل طويلاً بالمرحلتين الأوليتين، فإن المرحلة الثالثة لا تزال في حاجة إلى البحث والتنقيب، لمعرفة مدى تشرّب أتباع الشيوخ من سالكين الطريق الصوفية "المريدين"، لمفاهيم وآداب ومجاهدات ومناقب وسيّر شيوخهم من أسياد هذه الطريقة، وكيف استطاعوا تدوين هذا الإرث، والحفاظ على هذا التراكم الكبير لخبرات وتجارب سابقة، هي مهمة صعبة، خاصة وان التجربة الصوفية تجربة ذاتية، تختلف من صوفي لآخر من هنا تحمل التابع أو المريد. الذي هو في بداية الطريق الصوفية، دورا هاما في مرحلة التأصيل لهذا المذهب الديني والتأريخ لهذا التوجه الفكري وتخليد رجالاته.

والملاحظة الجديرة بالذكر أن هذه الحركة – التدوينية التأريخية - برزت أكثر عند متصوفة المغرب العربي وهو ما يدعون إلى التساؤل طبعا عن السبب الكامن وراء ذلك ؟

لا يمكننا أن نحدد بدقة البداية الفعلية للتصوف بالمغرب الإسلامي، إذ تنقصنا الأدلّة والبراهين على ذلك. والحقيقة أنّه كان في بداياته الأولى عبارة عن حركات زهديّه بدت بواكيرها منذ

الفتوحات الإسلامية للمنطقة " وقد اعتبر الباحثون أبا عمران الفاسي أول من أدخل تعاليم الجنيد إلى إفريقيّا ."

لقد كان للغزو الصليبي على بلاد الإسلام عامة، وعلى بلاد المغرب العربي والأندلس على وجه الخصوص، وذلك خلال القرن السادس للهجرة أثر بالغ في دفع الحياة الروحيّة الدينية من جديد، بعد أن غرق المغرب في دوامة اللهو والمجون، والتناحر من أجل السلطة والحكم، باعتبارها القوة الفعلية التي لها وزنها في التصدي لهذا العدو الذي تهاوت على يديه الأقاليم الإسلامية المفتوحة الواحدة تلو الأخرى.

وكان ذلك إنذارا بعجز الدولة، بتنظيماتها السياسية، وقوتها العسكرية، عن القيام بواجبها لحماية أراضيها، ومواجهة التقدم النصراني الزاحف نحوها بكل قوة وشراسة.

وأمام هذا التأزم ظهرت ردة فعل معاكسة حاولت تحمل أعباء الدفاع عن أراضي المسلمين بالمغرب والتصدي لأي عدو قادم إذ :" نهض الشعب المغربي بنفسه، وفتح عينيه على الخطر، وأخذ يتجمع لرد العادية، **وكان ظهوره على أيدي تنظيمات شعبية إسلامية خالصة في تنظيمات رجال الطرق والمرابطين الصوفية متمثلين في أشخاص الشرفاء، وعلى أيديهم كانت نجاة المغرب من خطر الغزو المحيق."**

انطلاقا من هذا أمكننا تفسير تلك النهضة الروحيّة الدينية التي عمت أقطار المغرب العربي، والتي أدت فيما بعد إلى تحولات هامة في نشاط المريدين من أتباع الطرق الصوفية ومن تجمع تحت لوائهم من أصحاب الميول الزهديّة. حيث أعانتهم الظروف السياسية والاجتماعية إلى التوجه لما تصبوا إليه نفوسهم من الزهد في الدنيا الفانية والانصراف للعبادات، والمجاهدات والنسك، وقد ساعد على تعميق انتشار هذا التيار الروحي القادم من المشرق في أصله الأول وسائل أربع هي: الحج، رحلات طلب العلم، الكتب والمؤلفات الصوفيّة، الرحلات التجارية نحو أقطار المشرق.

وعندما فقد الناس إيمانهم بمدى إمكانية النظم السياسية على حمايتهم ولعجزها وضعفها واستسلامها أمام الخطر، فُتح المنفذ واسعا في قلوب الناس للطرق الصوفية التي حلّت محلّها.

بل أكثر من ذلك؛ فقد تمكنت الحركة الصوفية بالمغرب عن طريق إنشاء الزوايا، وتجمع الناس حولهم لقراءة الأحزاب والذكر، وولاتهم لشيخ معين... من أن تحّل في نفوس الناس محل العصبية القبلية إلى حد كبير. فقد كانت هذه العصبية قد ضعفت... وهلك الألوف بعد الألوف من أهل هذه القبائل في الحروب التي دارت بين الدول بعضها مع بعض"

كان السر إذن وراء هذا الانتشار الكبير للتصوف وطرقه في بلاد المغرب العربي، عزوف أهله وقنوطهم من الفتن والحروب الداخلية والخارجية التي أثقلت كاهلهم وأدخلتهم في دوامة وحيرة وقلق، فباتت نفوسهم ترنوا إلى الاطمئنان النّفسي، والاستقرار الروحي والأمل في النجاة.

أي أنّ التصوف أضحى مطلبا جماعيا ملحا، وتوجًها عاما حتميا يحقق الغاية المنشودة لدى العامة، " وهكذا حلّت الزاوية محل الدولة، والطريقة محل النظام السياسي، والعهد الذي يربط المريد بالشيخ محل الولاء للدولة، وشيخ الطريقة محل رجل الدولة، في اعتبار المريدين.".

كان من أبرز أشكال هذا الولاء، وأنماط تلك التبعية للشيخ هي أن يقوم المريد بتأليف كتاب يجمع في ثناياه: مفاخر الأعمال ومكارم الأفعال، وأحسن الخلال وأسمى الخصال التي يتحلّى بها شيخه تعبيرا عن ولائه الخالص له، وتكثيرا لأتباعه، وجلبا لمريديه.

وهو ما يُسمى **بأدب المناقب الصوفية** التي ارتبطت خاصة ببلاد المغرب العربي، خاصة وأن هنالك من الأحاديث النبوية الشريفة ما يُعلي من الجانب الروحي لأبناء المغرب، وتدلّل على صلاح أهله واستقامتهم، من ذلك :" حدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا هَشْيُم عن داوَد بن أبي هْنِد عن أبي عثمان عن سعد بن أبي وقاص قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يزال أَهل الغَرِب ظَاهرين على الحق حتى تقوم الساعة ".

2- الكتابة النثرية في أدب الكرامة والولي: ملامح وخصائص:

وقد شهد مسار الكتابة النثرية الصوفية – حيث ينتمي أدب الكرامات والأولياء إليه - تطورا معرفيا وفنيا في المشرق قبل المغرب العربي، فقد كان الحارث المحاسبي (ت243هـ) هو أول كاتب صوفي تجسدت في كتاباته سمات فنية ملحوظة، تجسدت في النبرة الروحية الخاصة بالنثر الصوفي.. ثم تلاه الجنيد البغدادي في رسائله. والنفّري، فالتوحيدي، وابن عربي.. وغيرهم" ، بالموازاة مع هذا التطور في مسار النثر الصوفي فقد تطورت أشكاله الفنية أيضا إذ تنوعت " بين المناجاة، والحكَم والمواعظ، والقصص التعليمية، والرسائل المتبادلة بين الشيخ ومريديه وخواطر المناجاة، والتضرع، والابتهال وحكايات الخوارق، والكرامات، والأخبار الصوفية، والمقامات الروحية بوساطة أساليب يتجاوز فيها المصطلح الفلسفي، والتعبير الأدبي في محاولة للإحاطة بالمعاني الصوفية الجديدة، الغزيرة والعميقة، وبجمال التجربة التي تعبر عنها وفرادتها".

حيث اقترنت المناقب والرسائل المتبادلة بين الشيخ ومريديه بالكرامات بل أصبحت تدل عليها إنهُ لا بد لأي كتاب في المناقب أن يحتفي بالكثير من كرامات الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية،

وكان أن جعلت الكرامات عنونا لها: المناقب الصوفية، ولفظ (منقبة) يحيل مباشرة على ضروب من الكرامات المختلفة.

لعبت كتب المناقب تلك أو النصوص الكرامية على وجه التحديد دورا هاما في خدمة ونشر التيار الصوفي وتمرير خطاباته الإصلاحية.. لما للكرامة من خصائص وميزات تتيح لها تحقيق الغرض المنوط بها والرسالة الموكلة إليها بكل نجاح، وسر نجاحها يتأتى من كونها:

_ قالب أو شكل تعبيري مرتبط بالدين، وارتباطها بالمقدس يكفل لها القبول لدى العامة والخاصة، كما أنها قالب تعبيري قريب إلى القلوب والأذهان ويحمل في الوقت نفسه المتعة والتشويق والإثارة.

_ ولأنها نص ملتو يملك القدرة على التمويه والستر، وظفها الصوفية لتمرير خطاباتهم إلى المجتمع دونما التّعرض المباشر لمقارعة السلطة، أو الإعلان الصريح بالتمرد على قراراتها، فهي بذلك تحقق لهم السلامة الاضطهاد.

انطلاقا من وعي المريدين بهذه الأهميّة، وهذا الدور الذي تلعبه الكرامة، فهي تنجح في تمرير ما عجزت عنه الكثير من أنواع الخطابات الأخرى وفي فترة زمنية قياسية، تسابقوا وتنافسوا من اجل جمع أكبر قدر ممكن منها وترتيبه وتنظيمه ضمن مصنفات تعرف بكتب المناقب الصوفية.

3- أدب المناقب والكرامات في الأدب الجزائري القديم:

خصائص ومضامين ونماذج:

فقد راجت في الجزائر سوق المؤلفات الصوفية، وتسابق المريدون في تبسيط مضامين المصنفات الأساسية للتصوف، ثم انتقلوا إلى مرحلة الإنتاج ونجحوا في تشكيل اتجاهات ومذاهب صوفيّة لم تكن معروفة إلا بالمغرب الأوسط، من هنا انطلق تشكيل الخصوصيّة الصوفيّة لمتصوفة الجزائر بعد أن تشبعوا بمبادئ التصوف عبر مصادره المختلفة كما سبق وأشرنا.

واستمر ذلك حتى بدايات العهد العثماني بالمنطقة، بل أن روح التصوف سيطرت على الحياة العلمية والفكرية والدينية والاجتماعية في هذا العصر، وكثر إنتاج الكتب والرسائل والمنظومات والمناقب والمواعظ والحكم وشروح القصائد الصوفية، والأذكار والأوراد والردود والمدائح النبوية التي تسلط على الجانب الصوفي الروحاني في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ...وغير ذلك من الأجناس والقوالب التي احتكرها المريدون وشيوخ التصوف لنقل تجاربهم وتجارب سابقيهم، حيث أصبح " المؤلفون لا يؤلفون إلا وفي أذهانهم أهل التصوف سواء كانوا معاصرين لهم أو متقدمين عنهم" لدرجة أن التأليف في التصوف - عكس العلوم الأخرى - كان أكثر بكثير من

تدريسه ونشر تعاليمه. خاصة كتب المناقب الصوفية التي جعلت من حياة المتصوفة وسيرهم وتعداد فضائلهم وسرد كراماتهم وخوارقهم موضوعا لها. من أشهر ما أُلف في هذا المجال:

_ **المواهب القدسية في المناقب السنوسية:** ألفه " محمد بن إبراهيم بن عمر الملالي التلمساني" (ت 897 -هـ 1492م)؛ الكتاب ترجمة واسعة لشيخه الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، وقد جعله في مقدمة وعشرة أبواب هي: أشياخ السنوسي، كراماته، مكاشفه، زهده، تأليفه، جملة من الآيات التي فسرها، جملة من الأحاديث التي فسرها، تفسيره لكلام أهل الله، أوراده، وفاته..

_ **بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار، ومعدن الأنوار، سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار:** لمحمد الصباغ القلعي، ولد حوالي سنة 923هـ جمع في كتابه أخبار المليانى " وكان الصباغ فيه لا يكاد يفصل التاريخ والوقائع عن الحكايات والأساطير."

_ **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية** لأبن عبد الكريم الفكون.

_ **لواء النصر في فضلاء العصر** لأحمد بن عمار.

_ **عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف أغريس** لعبد الرحمان بن عبد الله بن احمد التجاني.

_ **أنس الغريب وروضة الأديب** لأبو العباس أحمد بن أحمد البجائي (حوالي865 -1460م) بسط الحديث في أبوابه عن التبتل في العبادات وأسرار الطاعات، وضمنه شذرات ونبذ من الشعر والأخبار ومناقب شيوخ التصوف، وآدابهم وعقائدهم.

_ **عُنوان الدراية فمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية** من تأليف الغبريني[1] ويبدو أن الغبريني كان كثير الإطلاع على أمهات الكتب الصوفية وشديد التأثر بها، وكان كلما ترجمت لأحد العلماء في علوم الدين يسرد لهم طائفة كبيرة من الكرامات والخوارق تكشف بكل وضوح " إيمانه بالكرامات وتسليمه بكل ما ينسب إلى أحد العبّاد ...." خاصة عند ترجمته لأبي مدين شعيب أين ألحق بترجمته ألوانا عديدة من الكرامات، وصنوف شتى من الخوارق.

_ **الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة** لأحمد بن القاسم البوني: تناول فيه علماء وصلحاء مدينة عنابة والمغرب وتونس.

_ **التعريف بالأحبار المالكين الأخيار** لمحمد السعيد بن علي الشريف الشلاطي، أبو الفضل(1314هـ) وهو في التصوف والمناقب الصوفية

وفي المقابل اتجه البعض إلى تخصيص مصنف كامل في ذكر كرامات وخوارق ومآثر شيخ من شيوخ الطرق الصوفية من ذلك:

_ **طهارة الأنفاس والأرواح الجسمانية في الطريقة الزيانية الشاذلية** لمصطفى بن الحاج بشير.

_ **فتح المنان، في سيرة الشيخ سيدي الحاج محمد بن أبي زيان** وهو مجهول المؤلف.

_ **كنز الأسرار، في مناقب مولانا العربي الدرقاوي وبعض أصحابه الأخيار** لمحمد بن محمد الغريسي المعسكري الملقب أبو زيان(ت 1271 -1854) م ترجم فيه لشيخ الطريقة الدرقاوية " محمد العربي الدرقاوي " .

فالملاحظ أن هناك كتب مناقب لمشايخ مدينة معينة أو ناحية ما تغطي عصر بكامله. في مقابل كتب اكتفت بذكر سيرة شيخ واحد وتعداد شيوخه وتلاميذه، وكراماته...

❖ نماذج من كتاب عنوان الدراية للغبريني

1. من كرامات أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي) ت594) هـ

_ سمعت عنه – رضي الله عنه – أنه قرأ حتى انتهى إلى سورة " تبارك الذي بيده الملك " فظهرت له معالم العلى، وتحلى من مواهب الله بأحسن الحلى، فكانت تلك السورة سورة منتهاه وغاية مرماه، وأخبرني بعض المشيخة – رضي الله عنهم أن - الشيخين القاضيين ... أبا علي ألمسيلي، وأبو محمد عبد الحق الاشبيلي رضي الله عنهما ،سمعا عنه أنه يأتي من العلم بفنون، وأنه اطلع من أمر الله على سره المكنون، مع أنه لم ينتهي بالقراءة إلا عند السورة المذكورة، فكانا يتعجبان، ويكادان يحيلان ما عنه يسمعان، فاتفق رأيهم على الاجتماع معه والاطلاع على ما عنده، فسارا إليه إلى أحد مسجديه اللذين كانا يجلس فيهما مع بعض خواص أصحابه، فدخلا فألفياه يفيض في أمور ويستخرج الدرر من قيعان البحور، فجلسا إلى أن فرغ من كلامه، ورجع إلى ما يخصه من مرامه فسلّما عليه وسلّم عليهما، ولم يكن لهما رؤية قبل، فقال لهما أما هذا فالفقيه أبو محمد عبد الحق، وأما هذا فالفقيه أبو علي ألمسيلي، فقالا: نعم، وكان هذا من جملة كراماته ... فسألاه حيث انتهى بدراسته، وعن مبلغ قراءته، وذكرا له أنهما سمعا عنه أنه انتهى إلى سورة " تبارك الذي بيده الملك"، وأنه لم يزد عليها ،فأجابهما رضي الله عنه وقال: نعم، كانت سورتي، فوجدتها سدرتي، ولو تعديتها لأحرقتني سبحات الوجه الكريم، ثم التفت إليهما مخاطباً بنزعة صوفية، مشيراً عن يمينه ويساره، وهو يقول: "بي قل وعلّي دل، فأنا الكل. " فانفصلا عنه، وقد تأكد العلم عندهما بأن الله مواهب لا تسعها المكاسب، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ."

2_ من كرامات الولي أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرالي التجيبي:

" ومن كراماته رضي الله عنه ما ذكره من أمره الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن إبراهيم السلاوي، قال : كنت ببجاية، فأصاب الناس جفوف عظيم، وقلت المياه... وصل الزق إلى

أربعة دراهم، وكان الناس يملئون من الوادي الكبير، قال فبعثني رحمه الله إلى بعض دور أصحابه، وسقيت برمة ماء ... وأمرني رضي الله عنه أن أسوق منها الماء للفقراء يشربون، قال فامتنعت كريمة وانتهرتني فسمع كلامها، فقال لي: قل لها يا كريمة و الله لأشربن من ماء المطر الساعة وهو قائم بالمسجد، مسجد الإمام المهدي رضي الله عنه، قال فرمق السماء بصره و دعا الله تعالى، ورفع يديه وشرع المؤذن في الآذان فانعقدت السحب وتراكمت ولم يختم المؤذن، إذ أنه بقوله : "لا اله إلا الله" حتى كان المطر كأفواه القرب، وروي الناس وأغدقوا فرأيته قال ينصب يديه المباركة في المطر ويشرب ويغسل وجهه ويقول: مرحبا بقريب عهد من ربه"

ومن كراماته رضي الله عنه: " ما حدثنيه شيخنا الفقيه أبو محمد عبد الحق رحمه الله، قال: كانت امرأة من معارف الشيخ رحمه الله، وكان لها ولد يشرب الخمر ويجني على نفسه فكانت تشكوا للشيخ رحمه الله، فكان يقول لها قولي له: يشرب بالكؤوس الكبار، لماذا يشرب بالكؤوس الصغار؟ فكانت تجد من ذلك في نفسها، وتقول: أسأله ليدعو لي ليخفف أمره فيأمره بالإكثار؟ قال : فسألناه عن ذلك فقال: قد جرى القدر بمقادير يشربها من الخمر، ولا بد من نفوذ ما جرى به القدر، فإذا شربها بالكؤوس الصغار طالت المدة، وإذا شربها بالكؤوس الكبار قصرت مدتها، قلت: وحقيقة هذه المسألة أن الشيخ رحمه الله كشف له عن أمره وعن حقيقة خبره، قال ولم يمض من المدة إلا مقدار يسير، ثم إنّ الشاب قد تاب وحسن حاله ببركة الشيخ رحمه الله "

ومن كراماته رضي الله عنه: " ما حدثني به غير واحد من أشياخي عنه أنّه وصف كل واحد منهم بوصفه، ووسمه بوسمه من حظه وتحصيل وغير ذلك ممن انتهت إليه أحوالهم، وسمت إليه آمالهم، فمن وصفه بالقضاء رقي إليه، ومن خصه بالتدريس والفتيا ظهر عليه، ومن خصه بالزهد واستجابة الدعوة عرف ذلك منه ...وهذا من مكاشفاته رضي الله عنه "

3_ من كرامات الولي أبو الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي:

" وذكر معاوية الزواوي وهو من خدامه قال جئت يوما لأراه فلما وقفت عند باب الزاوية أصابتني هيبة وسمعت كلاما بداخلها ،ومذاكرة فتأدبت ووقفت ثم بعد ساعة سكنت الأصوات فلما أردت الاستئذان عليه ناداني: ادخل يا معاوية، فمسست الباب فوجدته مفتوحاً فدخلت عليه وسلّمت ونظرت فلم أر أحداً فتعجبت من ذلك، وجلست فرأيت شيئاً من خبز وتين فنظر إليّ وتبسم ، وقال لي: كل من هذا فانه بقيّة قوم صالحين"

" وحدثني أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد المعطي بتدلس قال : خرجنا مع الشيخ نفع الله به وركبنا البحر، وحملنا آلة الصيد للحوت، ولم نزل نتصيد إلى قريب الظهر فلم يُفتح لنا بشيء ثم

نظر إلينا وسكت ساعة، ثم أخذ في الكلام في الأحوال والمعارف إلى أن انهمك فيها وتمكن وقت الصلاة، ثم رجع إلى حاله فصلينا الفريضة بالساحل ثم عدنا نتصيد، فقال الآن يفتح لكم به قال فرأينا على وجه الماء حيتاناً قد أخرجت رؤوسها من الماء كالمصابيح ثم صارت تترامى علينا في الزورق حتى امتلأ حوتاً، فلله ما أطيب وقتنا حينئذ وما أبركه، لقد خشعنا وبكينا، وتواجد بعضنا وجددنا التوبة مع الله والاعتقاد والعهد مع الشيخ رضي الله عنه في الاستغفار والثناء على الله ".

المصادر والمراجع (الاحالات):